سؤال وجواب

بقلم / **الشيخ بسام جرار**

أخ كريم سألنا اليوم، وهذا نص السؤال:

" أحدهم سألني: لماذا قتل المسلمون أهل البلاد المفتوحة (الناس المدنيين أو العسكريين) بعد عصر الرسول، كما حصل في بلاد فارس والشام وشمال افريقيا، ولماذا اتجهت جيوش المسلمين إلى هذه البلاد من الاصل؟ لماذا أراد المسلمون تغيير عقيدة وديانة أهل تلك البلاد باستخدام الجيوش؟ لماذا لم يذهبوا بالدعوة من دون استخدام الجيوش؟!

وقد رأينا أن تكون الإجابة معممة، لأن السؤال يتكرر:

أولاً: صيغة السؤال خطأ، لأنّ المسلمين لم يقتُلوا إلا في أرض المعارك الحربيّة. ويعترف أهل التاريخ من غير المسلمين بأنّ العالم لم يعرف فاتحاً أرحم من المسلمين؛ يقول ويليام جيمس ديورانت، الفيلسوف والمؤرخ والكاتب الأمريكي المشهور، ، صاحب الكتاب قصة الحضارة:" وقد كان أهل الذّمة: المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون، يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نظير لها في البلاد المسيحية في هذه الأيام (لاحظ عبارة في هذه الأيام)؛ فقد كانوا أحرارًا في ممارسة شعائرهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم". ويقول المؤرخ والفيلسوف الفرنسي المشهور جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب : " إنّ العالم لم يعرف فاتحين أعدل ولا أرحم من العرب".

ثانياً: إلى عهد قريب كان الحكام يجبرون شعوبهم على اعتناق ما يشاء هؤلاء الحكام من دين. وكانوا يُمارسون القتل والاضطهاد لكل من خرج عن دينهم. ولم يعرف التاريخ تسامحاً إلا تحت حكم المسلمين، حيث لم يجبروا أحداً على تغيير دينه، بل قاتلوا من أجل حرية الآخرين. وهذا لم يحصل إلا تحت حكم المسلمين.

ثالثاً: إليك مثالاً من تاريخ بريطانيا: الملك هنري الثامن يختلف مع البابا (كاثوليك) الذي لم يسمح له بتعدد الزوجات، فقام هنري الثامن بتحويل بريطانيا إلى البروتستانتيّة، وهم إلى اليوم بروتستانت.

وعندما فتح المسلمون إسبانيا لم يجبروا شخصاً واحداً على تغيير دينه، في حين وجدنا الأوروبيين يقتلون المسلمين الذين لا يتحوّلون إلى المسيحية. واضطهدوا اليهود، الذين كانوا يفرّون من الاضطهاد إلى بلاد المسلمين. ومحاكم التفتيش في أوروبا مشهورة، حيث كان يُمارَس القتل والتعذيب لكلّ من يخالف الكاثوليكيّة.

رابعاً: جاء الإسلام للبشريّة جمعاء، ولا يُعقل أن يميّز الله تعالى بين شعب وآخر. من هنا وجدنا ربعي بن عامر يقول لقائد الفرس قبل المعركة:" جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله". أمّا لو ارتضى المسلمون أن يقعدوا في حدود جزيرة العرب فإنّ ذلك يعني أنهم أصحاب دين قومي، لا يأبهون بمعاناة البشريّة.

خامساً: لذلك وجدنا المسلمين يُسقطون الأنظمة المتسلطة على رقاب الشعوب ثمّ يتركوا للناس الخيار. وسرعة انتشار الإسلام بين هذه الشعوب، وسلاسة الفتح ترجعُ وتُردُّ إلى عوامل من أهمها شعور هذه الشعوب بعدالة المسلمين، وأنهم أصحاب رسالة إنسانية، على خلاف كل الفاتحين من غير المسلمين، الذين كانت لهم أهداف قوميّة تسلطيّة أو اقتصادية، أو انتقاميّة...، ولذلك نقرأ في التاريخ أنّ أهل اسبانيا راسلوا المسلمين للقدوم إليهم وانقاذهم من الاضطهاد.

سادساً: الموسوعة اليهوديّة موسوعة ضخمة تتناول المسألة اليهودية عبر تاريخهم، ولم تُترجم إلى العربيّة في حدود علمنا. تتفاجأ عندما تقرأ الفصل الذي بعنوان:" العصر الذهبي"، أنه العصر الذي عاش فيه اليهود تحت حكم المسلمين!!

سابعاً: وفي القرون الأخيرة وجدنا الاستعمار الغربي لا يتوانى في غزو البلاد العربيّة والإسلاميّة وغيرها من بلاد البشر، ويضطهد وينهب الموارد، وحتى عندما خرج بقي يتآمر ويؤيّد الحكومات المصنوعة قسراً والمسلّطة على رقاب الشعوب. ومن يقرأ التاريخ القريب يجد أنّ الأوروبيين قتلوا من الهنود الحمر عند غزو أمريكيا أكثر من 120 مليوناً من الأطفال والنساء والشيوخ والشباب. بل يُقتل الملايين كل عام نتيجة ممارسات وسياسات الغربيين. ولا تسأل عمّا فعلته الشيوعيّة من قتل وتشريد. والشعب الفلسطين مثال قريب شاخص يقول: إنّ على الضعيف أن يعلم أنه حتماً سيُحتل ويضطهد؛ لأنه بغياب العقيدة الحقّ لا يَترك القويُّ الضعيف الوادع آمناً في بلده. بل تجد اليوم من يتشدقون بالحريات في الغرب يجبرون المسلمات على ترك الحجاب الذي هو تستّر، ومن أبسط حقوق المرأة التي لا تريد أن تكون سلعة الرجل. وتجدهم اليوم لا يريدون للشعوب العربيّة أن تكون حرّة في اختيار حكامها وأسلوب عيشها. ومن المضحك المبكي أن يقارن البعض بين الحريات في بلاد الغرب وفي بلادنا، حيث إن ما نعانيه هو صناعة غربيّة بامتياز.

ثامناً: واليوم بإمكان المسلم أن يتواصل مع شعوب الأرض في الكثير من البلاد، وتستطيع هذه الشعوب أن تختار عقيدها؛ فسلطة الحكام على عقائد الشعوب ضَعفت إلى حدٍ ما، وإن كانت النظرة المتعمّقة تشير إلى أنّ الفئات المتحكّمة لديها أساليبها المرنة في السيطرة ومسح الأدمغة وفرض القوانين الملبيّة لحاجاتها. فالصورة لن تكون مشرقة في ظل الحضارات الماديّة، أي أنها معركة يمكن أن تخاض بوسائل مرنة أيضاً، حتى يضطر الناس إلى تحقيق خلاصهم وحريّتهم الجوهريّة بوسائل أشدّ قسوة.